بيان أنّ النيّة غير داخلةٍ تحت الاختيار

اعلمْ : أنَّ الجاهلَ يسمعُ ما ذكرناهُ مِنَ الوصيةِ بتحسينِ النيةِ وتكثيرِها معَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ » ، فيقولُ في نفسِهِ عندَ تدريسِهِ أوْ تجارتِهِ أوْ أكلِهِ : نويتُ أنْ أدرِّسَ للهِ ، أوْ أتجرَ للهِ ، أوْ آكلَ للهِ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ نيةٌ ، وهيهاتَ ! فذلكَ حديثُ نفسٍ ، أوْ حديثُ لسانٍ أوْ فكرٍ ، أوِ انتقالٌ مِنْ خاطرٍ إلىٰ خاطرٍ ، والنيةُ بمعزلٍ عنْ جميعِ ذلكَ ، وإنَّما النيةُ انبعاثُ النفسِ وتوجُّهُها وميلُها إلىٰ ما ظهرَ لها أنَّ فيهِ غرضَها ؛ إمَّا عاجلاً أوْ آجلاً ، والميلُ إذا لمْ يكنْ . . لا يمكنُ اختراعُهُ واكتسابُهُ بمجرَّدِ الإرادةِ ، بلْ ذلكَ كقولِ الشبعانِ : نويتُ أنْ أشتهيَ الطعامَ وأميلَ إليهِ ، أوْ قولِ الفارغِ : نويتُ أنْ أعشقَ فلاناً وأحبَّهُ وأعظِّمَهُ بقلبي ، فذلكَ محالٌ ، بلْ لا طريقَ إلى اكتسابِ صرفِ القلبِ إلى الشيءِ ، وميلِهِ إليهِ وتوجهِهِ نحوَهُ إلا باكتسابِ أسبابِهِ ، وذلكَ ممَّا قدْ يقدرُ عليهِ وقدْ لا يقدرُ عليهِ ، وإنَّما تنبعثُ النفسُ إلى الفعلِ إجابةً للغرضِ الباعثِ الموافقِ للنفسِ الملائمِ لها ، وما لمْ يعتقدِ الإنسانُ أنَّ غرضَهُ منوطٌ بفعلٍ مِنَ الأفعالِ . . فلا يتوجَّهُ نحوَهُ قصدُهُ ، وذلكَ ممَّا لا يُقدرُ على اعتقادِهِ في كلِّ حينٍ وإذا اعتُقِدَ فإنَّما يتوجَّهُ القلبُ إذا كانَ فارغاً غيرَ مصروفٍ عنهُ بغرضٍ شاغلٍ أقوىٰ منهُ ، وذلكَ لا يمكنُ في كلِّ وقتٍ ، والدواعي والصوارفُ لها أسبابٌ كثيرةٌ بها تجتمعُ ، ويختلفُ ذلكَ بالأشخاصِ وبالأحوالِ وبالأعمالِ .

فإذا غلبَتْ شهوةُ النكاحِ مثلاً ولمْ يعتقدْ غرضاً صحيحاً في الولدِ ديناً ولا دنيا . . لا يمكنُهُ أنْ يواقعَ علىٰ نيةِ الولدِ ، بلْ لا يمكنُ إلا علىٰ نيةِ قضاءِ الشهوةِ ؛ إذِ النيةُ هيَ إجابةُ الباعثِ ، ولا باعثَ إلا الشهوةُ ، فكيفَ ينوي الولدَ ؟!

وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ أنَّ إقامةَ سنةِ النكاحِ اتباعاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعظمُ فضلُها . . لا يمكنُ أنْ ينويَ بالنكاحِ اتباعَ السنةِ إلا أنْ يقولَ ذلكَ بلسانِهِ وقلبِهِ وهوَ حديثٌ محضٌ وليسَ بنيةٍ .

نعمْ ، طريقُ اكتسابِ هـٰذهِ النيةِ مثلاً أنْ يقوِّيَ أوَّلاً إيمانَهُ بالشرعِ ، ويقوِّيَ إيمانَهُ بعظمِ ثوابِ مَنْ يسعىٰ في تكثيرِ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدفعَ عنْ نفسِهِ جميعَ المنفِّراتِ عنِ الولدِ ؛ مِنْ ثقلِ المؤنةِ وطولِ التعب وغيرِهِ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . ربما انبعثَتْ مِنْ قلبِهِ رغبةٌ إلىٰ تحصيلِ الولدِ للثوابِ ، فتحرِّكُهُ تلكَ الرغبةُ ، وتتحرَّكُ أعضاؤُهُ لمباشرةِ العقدِ ، فإذا انتهضَتِ القدرةُ المحرِّكةُ للسانِ بقبولِ العقدِ طاعةً لهـٰذا الباعثِ الغالبِ على القلبِ . . كانَ ناوياً ، فإنْ لمْ يكنْ كذلكَ . . فما يقدِّرُهُ في نفسِهِ ويردِّدُهُ في قلبِهِ مِنْ قصدِ الولدِ وسواسٌ وهذيانٌ[1] .

---

(١) وكذا كل غرض شرعي ورد الشرع بفضله وله صوارف من جهة النفس والهوىٰ ، كمن دخل في صوم نفل ثم أمره أبواه أو أحد إخوانه بالإفطار ، فأراد أن يفطر لإدخال السرور علىٰ قلب الوالدين ، فما دامت شهوة الطعام تزاحمه . . لا تصح نيته ، فإن أفطر لاعتقاده أنه عامل لله . . فعلامة صحتها : تصغير اللقمة ، وقصر اليد ، وعدم الشره في =

ولهـٰذا امتنعَ جماعةٌ مِنَ السلفِ مِنْ جملةٍ مِنَ الطاعاتِ ؛ إذْ لمْ تحضرْهُمُ النيةُ ، فكانوا يقولونَ : ليسَ تحضرُنا فيهِ نيةٌ ، حتىٰ إنَّ ابنَ سيرينَ لمْ يصلِّ علىٰ جنازةِ الحسنِ البصريِّ ، وقالَ : ليسَ تحضرُني نيةٌ[1] .

ونادىٰ بعضُهُمُ امرأتَهُ ـ وكانَ يسرِّحُ شعرَهُ ـ أنْ هاتِ المِدْرَىٰ[2] ، فقالَتْ : أجيءُ بالمرآةِ ؟ فسكتَ ساعةً ثمَّ قالَ : نعمْ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : كانَ لي في المِدْرىٰ نيةٌ ، ولم تحضرْني في المرآةِ نيةٌ ، فتوقفتُ حتىٰ هيَّأَها اللهُ تعالىٰ[3] .

وماتَ حمادُ بنُ أبي سليمانَ ، وكانَ أحدَ علماءِ أهلِ الكوفةِ ، فقيلَ للثوريِّ : ألا تشهدُ جنازتَهُ ؟

فقالَ : لوْ كانَ لي نيةٌ . . لفعلتُ[4] .

وكانوا إذا سئلوا عملاً مِنْ أعمالِ البرِّ . . قالوا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ نيةً . . فعلنا[5] .

= الباطن ، والقيام قبل الشبع ، وما من حالة من الحالات إلا ويتقدمها أسباب يكتسب بها ، وتتأخر عنها علامات يعرف بها صحتها ، فليطلب علم كل حال من موضعه . « إتحاف » (١٠/ ٣٠) .

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « العلل » (٢٧٤٨) .

(٢) **المدرىٰ** : قرن علىٰ هيئة المُشط يُسرَّح به الشعر .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وكانَ طاووسٌ لا يحدِّثُ إلا بنيةٍ ، وكانَ يُسألُ أنْ يحدِّثَ فلا يحدِّثُ ، ولا يُسألُ فيبتدىءُ فقيلَ لهُ في ذلكَ ، قالَ : أفتحبونَ أنْ أحدِّثَ بغيرِ نيةٍ ؟ إذا حضرَتْني نيةٌ . . فعلتُ[1] .

وحُكِيَ أنَّ داوودَ بنَ المحبَّرِ لمَّا صنَّفَ كتابَ « العقلِ » . . جاءَهُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، فطلبَهُ منهُ ، فنظرَ فيهِ أحمدُ صفْحاً[2] ، فردَّهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : فيهِ أسانيدُ ضعافٌ ، فقالَ لهُ داوودُ : أنا لمْ أخرِّجْهُ على الأسانيدِ فأنظرَ فيهِ بعينِ الخُبْرِ[3] ، إنَّما نظرتُ فيهِ بعينِ العملِ فانتفعتُ ، قالَ أحمدُ : فردُّهُ عليَّ حتىٰ أنظرَ فيهِ بالعينِ التي نظرتَ ، فأخذَهُ ومكثَ عندَهُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقدِ انتفعتُ بهِ[4] .

وقيلَ لطاووسٍ : ادعُ لنا ، فقالَ : حتىٰ أجدَ لهُ نيةً[5] .

وقالَ بعضُهُمْ : (أنا في طلبِ نيةٍ لعيادةِ رجلٍ منذُ شهرٍ ، فما صحَّتْ لي بعدُ) .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٥٨٤) .
(٢) قلَّب أوراقه ونظر فيها دون تأمُّل .
(٣) أي : مختبراً له .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) ، وداوود مع اتفاق أهل صنعة الحديث علىٰ تركه لم يكن مطعون الديانة ، ونقل الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (١/ ٥٧٠) عن ابن معين قوله : (ليس بكذاب ، وقد كتبت عن أبيه المحبَّر ، وكان داوود ثقة ، ولكنه جفا الحديث ، وكان يتنسَّك) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩) .

وقالَ عيسىٰ بنُ كثيرٍ : مشيتُ معَ ميمونِ بنِ مهرانَ ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ بابِ دارِهِ . . انصرفتُ ، فقالَ لهُ ابنُهُ : ألا تعرضُ عليهِ العشاءَ ؟ قالَ : ليسَ مِنْ نيتي[1] .

وهٰذا لأنَّ النيةَ تتبعُ النظرَ ، فإذا تغيَّرَ النظرُ . . تغيَّرتِ النيَّةُ ، وكانوا لا يرونَ أنْ يعملوا عملاً إلا بنيةٍ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ النيةَ روحُ الأعمالِ ، وأنَّ العملَ بغيرِ نيةٍ صادقةٍ رياءٌ وتكلُّفٌ ، وهوَ سببُ مقتٍ لا سببُ قربٍ ، وعلموا أنَّ النيةَ ليستْ هيَ قولَ القائلِ بلسانِهِ : نويتُ ، بلْ هوَ انبعاثُ القلبِ يجري مجرى الفتوحِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ تتيسَّرُ في بعضِ الأوقاتِ ، وقدْ تتعذَّرُ في بعضِها .

نعمْ ، مَنْ كانَ الغالبُ علىٰ قلبِهِ أمرَ الدينِ . . تيسَّرَ عليهِ في أكثرِ الأحوالِ إحضارُ النيةِ للخيراتِ ، فإنَّ قلبَهُ مائلٌ بالجملةِ إلىٰ أصلِ الخيرِ ، فينبعثُ إلى التفاصيلِ غالباً ، ومَنْ مالَ قلبُهُ إلى الدنيا وغلبَتْ عليهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ ذلكَ ، بلْ لا يتيسَّرُ لهُ في الفرائضِ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، وغايتُهُ أنْ يتذكَّرَ النارَ ويحذِّرَ نفسَهُ عقابَها ، أوْ نعيمَ الجنَّةِ ويرغِّبَ نفسَهُ فيها ، فربما تنبعثُ لهُ داعيةٌ ضعيفةٌ ، فيكونُ ثوابُهُ بقدْرِ رغبتِهِ ونيتِهِ .

وأمَّا الطاعةُ علىٰ نيةِ إجلالِ اللهِ تعالىٰ لاستحقاقِهِ الطاعةَ والعبوديةَ . . فلا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٨) .

تتيسَّرُ للراغبِ في الدنيا ، وهـٰذهِ أعزُّ النياتِ وأعلاها ، ويعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يفهمُها فضلاً عمَّنْ يتعاطاها .

ونيَّاتُ الناسِ في الطاعاتِ أقسامٌ ؛ إذْ منهُمْ مَنْ يكونُ عملُهُ إجابةً لباعثِ الخوفِ ، فإنَّهُ يتقي النارَ ، ومنهُمْ مَنْ يعملُ إجابةً لباعثِ الرجاءِ ، وهوَ الرغبةُ في الجنةِ ، وهـٰذا وإنْ كانَ نازلاً بالإضافةِ إلىٰ قصدِ طاعةِ اللهِ وتعظيمِهِ لذاتِهِ ولجلالِهِ لا لأمرٍ سواهُ . . فهوَ مِنْ جملةِ النياتِ الصحيحةِ ؛ لأنَّهُ ميلٌ إلى الموعودِ في الآخرةِ وإنْ كانَ مِنْ جنسِ المألوفاتِ في الدنيا ، وأغلبُ البواعثِ باعثُ الفرجِ والبطنِ ، وموضعُ قضاءِ وطرِهِما الجنةُ ، فالعاملُ لأجلِ الجنةِ عاملٌ لبطنِهِ وفرجِهِ ؛ كالأجيرِ السوءِ ، ودرجتُهُ درجةُ البُلْهِ ، وإنَّهُ لينالُها بعملِهِ ؛ إذْ أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ .

وأمَّا عبادةُ ذوي الألبابِ . . فلا تجاوزُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ والفكرَ فيهِ ؛ حبّاً لجمالِهِ وجلالِهِ ، وسائرُ الأعمالِ تكونُ مؤكداتٍ وروادفَ ، وهؤلاءِ أرفعُ درجةً مِنَ الالتفاتِ إلى المنكوحِ والمطعومِ في الجنةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يقصدُوها ، بلْ هُمُ الذينَ يدعونَ ربَّهُمْ بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجهَهُ فقطْ ، وثوابُ الناسِ بقدْرِ نياتِهِمْ ، فلا جرمَ يتنعَّمونَ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ويسخرونَ ممَّنْ يلتفتُ إلىٰ وجوهِ الحورِ العينِ كما يسخرُ المتنعِّمُ بالنظرِ إلى الحورِ العينِ ممَّنْ يتنعَّمُ بالنظرِ إلىٰ وجهِ الصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلْ أشدُّ ، فإنَّ التفاوتَ بينَ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ وجمالِ الحورِ العينِ أشدُّ وأعظمُ كثيراً مِنَ التفاوتِ بينَ جمالِ الحورِ العينِ والصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلِ استعظامُ النفوسِ

البهيميةِ الشهوانيةِ لقضاءِ الوطرِ ومخالطةِ الحسانِ وإعراضُها عنْ جمالِ وجهِ اللهِ الكريمِ يضاهي استعظامَ الخنفساءِ لصاحبتِها وإلفَها لها وإعراضَها عنِ النظرِ إلىٰ جمالِ وجوهِ النساءِ ، فعمىٰ أكثرِ القلوبِ عنْ إبصارِ جمالِ اللهِ وجلالِهِ يضاهي عمى الخنفساءِ عنْ إدراكِ جمالِ النساءِ ؛ فإنَّها لا تشعرُ بهِ أصلاً ، ولا تلتفتُ إليهِ ، ولوْ كانَ لها عقلٌ وذُكرْنَ لها . . لاستخفَّتْ عقلَ مَنْ يلتفتُ إليهِنَّ ، ولا يزالونَ مختلفينَ ، كلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، ولذلكَ خلقَهُمْ .

حُكِيَ أنَّ أحمدَ بنَ خضرويهِ رأىٰ ربَّهُ تعالىٰ في المنامِ ، فقالَ لهُ : كلُّ الناسِ يطلبونَ منِّي الجنةَ إلا أبا يزيدَ ، فإنَّهُ يطلبُني[1] .

ورأىٰ أبو يزيدَ ربَّهُ في المنامِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ الطريقُ إليكَ ؟ فقالَ : اتركْ نفسَكَ وتعالَ إليَّ[1] .

ورُئِيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : لمْ يطالبْني على الدعاوىٰ بالبرهانِ إلا علىٰ قولٍ واحدٍ ، قلتُ يوماً : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ الجنةِ ؟ فقالَ : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ لقائي ؟![2] .

والغرضُ أنَّ هٰذهِ النيَّاتِ متفاوتةٌ بتفاوتِ الدرجاتِ ، ومَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ واحدةٌ منها . . ربما لا يتيسَّرُ لهُ العدولُ إلىٰ غيرِها .

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦٠٨) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦١٠) .

ومعرفةُ هـٰذهِ الحقائقِ تورثُ أعمالاً وأفعالاً يستنكرُها الظاهريونَ مِنَ الفقهاءِ ، فإنَّا نقولُ : مَنْ حضرَتْ لهُ نيةٌ في مباحٍ ، ولمْ تحضرْ في فضيلةٍ . . فالمباحُ أولىٰ ، وانتقلَتِ الفضيلةُ إليهِ[1] ، وصارَتِ الفضيلةُ في حقِّهِ نقيصةً ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وذلكَ مثلُ العفوِ ، فإنَّهُ أفضلُ مِنَ الانتصارِ في الظلمِ ، وربما تحضرُهُ نيةٌ في الانتصارِ دونَ العفوِ ، فيكونُ ذلكَ أفضلَ .

ومثلُ أنْ يكونَ لهُ نيةٌ في الأكلِ والشربِ والنومِ ليريحَ نفسَهُ ويتقوَّىٰ على العبادةِ في المستقبلِ ، وليسَ تنبعثُ نيتُهُ في الحالِ للصومِ والصلاةِ ، فالأكلُ والنومُ هوَ الأفضلُ لهُ ، بلْ لوْ ملَّ العبادةَ لمواظبتِهِ عليها ، وسكنَ نشاطُهُ ، وضعفَتْ رغبتُهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ ترفَّهَ ساعةً بلهوٍ وحديثٍ عادَ نشاطُهُ . . فاللهوُ والحديثُ أفضلُ لهُ مِنَ الصلاةِ ، قالَ أبو الدرداءِ : (إنِّي لأستجمُّ نفسي بشيءٍ من اللهوِ ، فيكونُ ذلكَ عوناً لي على الحقِّ)[2] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (روِّحوا القلوبَ ، فإنَّها إذا أُكرهَتْ . . عميَتْ)[3] .

وهـٰذهِ دقائقُ لا يدركُها إلا سماسرةُ العلماءِ ، دونَ الحشْويةِ منهُمْ ، بلِ

---

(١) أي : انتقل المعنىٰ فصار المباح هو الفضيلة . « إتحاف » (١٠/ ٣٣) .

(٢) أورده ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦/ ٥٠١) ، والسياق عند صاحب « القوت » (٢/ ١٥٣) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧١٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/ ١٨٣) بنحوه .

الحاذقُ بالطبِّ قدْ يعالجُ المحرورَ باللحمِ معَ حرارتِهِ ، ويستبعدُهُ القاصرُ في الطبِّ ، وإنَّما يبتغي بهِ أنْ يعيدَ أوَّلاً قوَّتَهُ ليحتملَ المعالجةَ بالضدِّ ، والحاذقُ في لعبِ الشطرنجِ مثلاً قدْ ينزلُ عنِ الرُّخِّ والفرسِ مجاناً ليتوصَّلَ بذلكَ إلى الغلبةِ ، والضعيفُ البصيرةِ قدْ يضحكُ بهِ ، ويتعجَّبُ منهُ ، وكذلكَ الخبيرُ بالقتالِ قدْ يفرُّ بينَ يدي قرينِهِ ، ويولِّيهِ دبرَهُ حيلةً منهُ ؛ ليستجرَّهُ إلىٰ مضيقٍ فيكرَّ عليهِ فيقهرَهُ .

فكذلكَ سلوكُ طريقِ اللهِ تعالىٰ كلُّهُ قتالٌ معَ الشيطانِ ، ومعالجةٌ للقلبِ ، والبصيرُ الموفَّقُ يقفُ فيها علىٰ لطائفَ مِنَ الحيلِ يستبعدُها الضعفاءُ ، فلا ينبغي للمريدِ أنْ يضمرَ إنكاراً علىٰ ما يراهُ مِنْ شيخِهِ ، ولا للمتعلِّمِ أنْ يعترضَ علىٰ أستاذِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقفَ عندَ حدِّ بصيرتِهِ ، وما لا يفهمُهُ مِنْ أحوالِهما يسلِّمُهُ لهما إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ أسرارُ ذلكَ ؛ بأنْ يبلغَ رتبتَهُما ، وينالَ درجتَهُما ، ومنَ اللهِ حسنُ التوفيقِ[1] .

❋ ❋ ❋

(١) أتى الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٤) علىٰ مزيد من تفصيل القول في النية معتمداً على « القوت » ، و« شرح التقريب » للحافظ العراقي ، و« إدراك الأمنية في النية » للشهاب القرافي ، و« منتهى الآمال » للسيوطي .